الصباح الإسلامية
09
العدد 2532 - السنة التاسعة
الثلاثاء 28 شوال 1437 - الموافق 2 أغسطس 2016
Tuesday 2 August 2016 - No.2532 - 9th Year
إعداد : ياسر السيد

تحدث عنه القرآن الكريم بالكثير من آياته

التسامح في المنظور الإسلامي

ثمة مداخل منهجية عديدة لتوضيح مفهوم التسامح في المنظور الإسلامي، إلا أن من أهم هذه المداخل هي تلك المرتبطة بطبيعة الإسلام وتشريعاته ونظمه.. إذ لا يمكننا منهجيا أن نتصور تشريعات الإسلام وأحكامه ونظمه بكل مستوياتها، بعيدا عن حقيقة التسامح التي تحتضنها كل قيم وتشريعات الإسلام..ووجود مفارقة صارخة على هذا الصعيد بين قيم الإسلام ومثله وواقع المسلمين المليء بالكثير من المظاهر والحقائق المضادة لمفهوم التسامح ..يدفعنا إلى الإصرار على أهمية اكتشاف رؤية الإسلام لمفهوم التسامح، من داخل قيمه ومن الطبيعة التشريعية والقانونية التي تمثلها قيم الإسلام ونظمه الأساسية..

ففي الإسلام تعتبر الكلمة أول شيء آخر شيء في الدعوة، ذلك لأن الدعوة إلى الله تعالى لما كان الهدف من إيصال الحق إلى القلوب، ليستقر فيها ويحرك الإنسان باتجاه الفضيلة، فإن من الضروري أن تكون الكلمة الوسيلة الأساس في تحقيق هذا الهدف، بسبب ما فيها من رؤية ولين وقدرة على الإقناع، وبسبب ما تحققه من ضمانة الثبات والتمكن لأفكارها في القلوب والسلوك..وهذا السياق هو الذي تؤكده الآيات الكريمة بوصفه الميزة التي اختصت بها الدعوة الإسلامية، التي أرادت السمو بالإنسان إلى ملكوت الله تعالى والأنس بجواره.

فيقول تبارك وتعالى (ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن)..(سورة النحل،الآية 125)..والموعظة الحسنة على حد تعبير بعض المفسرين هي : التي تدخل القلب برفق، وتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو حسن نية..فإن الرفق في الموعظة كثيرا ما يهدي القلوب الشاردة ويؤلف القلوب النافرة ويأتي بخير من الزجر والتأنيب..والدعوة إلى سلوك الطريق الأحسن في مقام الجدل والصراع الفكري، هي دعوة قرآنية تخاطب كل مجال من مجالات الصراع في الحياة وتتصل بكل علاقة من علاقات الإنسان بأخيه الإنسان في مجالات الصرع ..إنها دعوة الله إلى الإنسان في قوله تعالى(ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)..(سورة فصلت، الآية 34)..وقوله (وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبينا)..

هذه الدعوة الصافية التي توحي للإنسان في كل زمان ومكان، أن مهمته في الحياة هي أن يلبر في الإنسانية عوامل الخير ويلتقي بها في عملية استثارة واستثمار، بدلا من عوامل الشر التي تهدم ولاتبني وتضر ولاتنفع وتدفعه في الوقت نفسه إلى أن يجعل اختيار الأحسن في كل شيء وفي كل جانب من حياته شعاره الذي يرفعه في كل مكان وزمان..

وإن القوة مهما كانت درجتها لن تنسجم مع طبيعة الرسالة الإسلامية، مادامت القوة تعني محاصرة العقل وفرض الفكرة عليه تحت تأثير الألم أو الخوف. لذلك فإن الباري عز وجل يحذر رسوله أن يمارس التبليغ بروح السيطرة والاستعلاء. (فذكر إنما أنت مذكر، لست عليهم بمسيطر)..(سورة الغاشية، الآية 22)..

ولما كانت الأخلاق تتجلى رقة وحنانا واستيعابا للآخرين، فإننا نلاحظ أن الله تعالى يذكر نبيه بالقاعدة الذهبية التي جعلته داعية ناجحا ومقبولا، ويؤكد له أن حيازته على هذه السجية إنما هي بفضل الله وتوفيقه.(فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)..(سورة آل عمران، الآية 159).

وفي هذا الجو المفعم بالأخلاق وطيب القلب والعفو، نحدد علاقتنا بالأشياء والأشخاص، لتكون بأجمعها مشدودة إلى هذه القيم النبيلة، وسائدة في هذا الاتجاه. فالأصل في العلاقة بين بني الإنسان بصرف النظر عن منابتهم الأيدلوجية والفكرية، هو الرحمة والإحسان والبر والقسط وتجنب الإيذاء..

فالتسامح وفق المنظور الإسلامي، فضيلة أخلاقية، وضرورة مجتمعية، وسبيل لضبط الاختلافات وإدارتها. والسؤال الذي يطرح في هذا السياق هو: ماهي الجذور المعرفية والفكرية لمفهوم التسامح في الرؤية الإسلامية.

وبإمكاننا أن نجيب على هذا السؤال، من خلال النقاط التالية:

– يعترف الإسلام في كل أنظمته وتشريعاته، بالحقوق الشخصية لكل فرد من أفراد المجتمع، ولايجيز أي ممارسة تفضي إلى انتهاك هذه الحقوق والخصوصيات. ولاريب أنه يترتب على ذلك على الصعيد الواقعي، الكثير من نقاط الاختلاف بين البشر، ولكن هذا الاختلاف لايؤسس للقطيعة والجفاء والتباعد، وإنما يؤسس للمداراة والتسامح مع المختلف. فالاختلاف بكل صوره وأشكاله، ليس مدعاة أو سببا لسلب الحقوق أو نقصانها، وإنما تبقى حقوق الإنسان مصانة وفق مقتضيات التسامح والعدالة..

– إن الحقيقة الكاملة والناجزة، لايمكن الوصول إليها دفعة واحدة، وإنما هي بحاجة إلى فعل تراكمي يستفيد من كل العقول والجهود والطاقات الإنسانية. لذلك من الأخطاء الفادحة والقاتلة التعامل مع القناعات الإنسانية بوصفها حقائق جزئية ومطلقة. وذلك لأن هذا التعامل، هو الذي يؤسس للدوغمائية التي ترى في قناعتها الحقيقة المطلقة، فتمارس على ضوء ذلك التطرف والتشدد على قاعدة امتلاك الحقيقة المطلقة. وعلى اعتبار أننا كبشر لانمتلك هذه الحقيقة المطلقة، وإنما هي موزعة بين البشر، وتحتاج إلى إنصات وتواصل مستمر بينهم. لذلك فإن التسامح هو الخيار السليم الذي ينبغي أن يتم التعامل به.

– إن المنظومة الأخلاقية والسلوكية، التي شرعها الدين الإسلامي من قبيل الرفق والإيثار والعفو والإحسان والمداراة والقول الحسن والألفة والأمانة، وحث المؤمنين على الالتزام بها وجعلها سمة شخصيتهم الخاصة والعامة، كلها تقتضي الالتزام بمضمون مبدأ التسامح، بمعنى أن تجسيد المنظومة الأخلاقية على المستويين الفردي والاجتماعي، يفضي لامحالة إلى شيوع حالة التسامح في المحيط الاجتماعي. فالرفق يتطلب توطين النفس على التعامل الحضاري مع الآخرين، حتى ولو توفرت أسباب الاختلاف والتمايز معهم. والمداراة تقتضي القبول بالآخر، واليسر والتيسير يتطلبان التعايش مع الآخرين، وحتى ولو اختلفت معهم في القناعات والتوجهات. إذ يقول عز من قائل(إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكرون)..(سورة النحل، الآية 90)..

ومن خلال هذه المنظومة القيمية والأخلاقية، نرى أن المطلوب من الإنسان المسلم دائما وأبدا وفي كل أحواله وأوضاعه، أن يلتزم بمقتضيات التسامح ومتطلبات العدالة..

فالتسامح كسلوك وموقف ليس منة أو دليل ضعف وميوعة في الالتزام بالقيم، بل هي من مقتضيات القيم ومتطلبات الالتزام بالمبادئ. فالغلظة والشدة والعنف في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، هي المناقضة للقيم، وهي المضادة لطبيعة متطلبات الالتزام وهي دليل ضعف وخواء..

وعليه فإن التسامح الذي يقود التعايش والاستقرار الاجتماعي وتطوير أواصر وأسباب التعاون بين مختلف أبناء وشرائح المجتمع، هو من صميم القيم الإسلامية النبيلة، وكل إنسان خالف ذلك، ومارس الغلظة والشدة في علاقاته الإنسانية والاجتماعية لدواعي مختلفة، هو الذي يحتاج إلى مبررات أيدلوجية واجتماعية..فالأصل في العلاقات الاجتماعية والإنسانية، أن تكون علاقات قائمة على المحبة والمودة والتآلف، حتى ولو تباينت الأفكار والمواقف، بل إن هذا التباين هو الذي يؤكد ضرورة الالتزام بهذه القيم والمبادئ.

فوحدتنا الاجتماعية والوطنية اليوم، بحاجة إلى غرس قيم ومتطلبات التسامح في فضائنا الاجتماعي والثقافي والسياسي.. كما ان من مقتضيات مواجهة التحديات الكبرى التي تواجهنا إشاعة قيم الحوار والتسامح والمحبة والألفة بين أبناء المجتمع والوطن الواحد..

فالتسامح بما يعني من قيم وسلوك ومواقف هو جسرنا لإعادة تنظيم علاقاتنا الداخلية، بما يوفر لنا إمكانية حقيقية وصلبة لمواجهة كل التحديات والصعوبات..

فالتسامح اليوم ليس فضيلة فحسب، بل هو ضرورة اجتماعية وثقافية وسياسية، وذلك من أجل تحصين واقعنا أمام كل المخاطر الزاحفة إلينا، والتي تستهدفنا في وجودنا ومكاسبنا وتطلعاتنا..

ولا شك أن تعميم وغرس هذه القيمة في فضائنا الاجتماعي بحاجة إلى سياج قانوني وإجرائي يحمي هذه القيمة ويوفر لها الإمكانية الحقيقية لكي تستثبت في تربتنا الاجتماعية.

وهذا يتطلب منا العناية والالتزام بالأمور التالية:

– ضرورة تجريم كل أشكال بث الكراهية والحقد بين أبناء الوطن والمجتمع الواحد..فاللحظة التاريخية تتطلب منا جميعا القبض على وحدتنا واستقرارنا، وهذا بطبيعة الحال يتطلب الوقوف بحزم ضد كل محاولات بث الفرقة والكراهية والحقد بين أبناء الوطن الواحد..

– أن تعتني وسائل الإعلام والتثقيف والتوعية في مجتمعنا بهذه القيمة، وتعمل على تكريسها في خطابها الثقافي والإعلامي، حتى يتوفر المناخ المناسب لكي تكون هذه القيمة، جزءا من نسيجها الثقافي والاجتماعي.

– إن المؤسسات والمعاهد والشخصيات الدينية في المجتمع، تتحمل مسؤولية كبرى على هذا الصعيد. لذلك فإن هذه الجهات معنية اليوم بضرورة إشاعة وتعميق متطلبات التسامح في واقعنا الاجتماعي والثقافي والسياسي.. فالمطلوب من هذه المؤسسات والجهات، ليس تبرير وتسويغ أشكال وممارسات الكراهية في المجتمع، بل محاربتها ورفع الغطاء الشرعي عنها، والعمل من مختلف المواقع وعبر مختلف الوسائل لتعميق قيم الحوار والتسامح وصيانة حقوق الإنسان في المجتمع..

«وخلق الإنسان ضعيفاً»

ما أضعف الإنسان، وما أعجز الإنسان أمام كون فسيح، ما أصغره أمام خلق الله إنه لا يساوي قيد أنملة على هذا الكون، من فضاء وأرض وأجرام وكائنات أخر، وقد ذكر الله بكتابه العزيز الإنسان بضعفه وأوجزه في ثلاثة كلمات حين قال: «وخلق الإنسان ضعيفا». فأبان جوهره وعكفت الدراسات العلمية منذ قرون على اكتشاف هذا الضعف وتبينه كل يوم باكتشاف جديد ليثبت أن كلام الله معجزة. فالإنسان ظاهره بساطة ووضوح يراها غيره وجوهره تعقيد وغموض، فلا زال العلم قاصرا وعاجزا عن رصد الجانب الشعوري والعاطفي والروحي وربطه مع وظائف الأعضاء ودراسة دماغ الانسان وتشريحه بعيدا عن علم الاصابات والأمراض، فلا عالم أتى بمكونات الدماغ وتفاعلاتها مع بعضها البعض أو معرفة السوائل التي تسير بجسم الإنسان، أو التفكر والتدبر في أعضاء الإنسان الداخلية وكوامنها، فكثير من أمراض السرطان لا زالت مجهولة السبب ولا أحد يعلم حتى اليوم ما هو سبب الإصابة بأمراض السرطان على اختلاف تسمياتها، أو أشكالها، أو أنواعها، أو أعراضها. وإن أضعف ما يجده الإنسان في نفسه هو عجزه عن توقيف تفكيره ومشاعره من أن تسيطر عليه، فلا يتغلب على مخاوفه وقلقه والضغوط التي تطرأ عليه إلا بعد فترة زمنية طويلة، وهذا عكس ما يريده من سيطرة على الأرض وتملك فكيف به يسيطر على شيء ما مادي وهو ليس بوسعه أن يسيطر على مشاعره وعقله وتفكيره .. ومن مظاهر عجز الإنسان عدم تمكنه من التنبؤ أو الرسم المستقبلي لما سيحدث، فيشعر بأنه قاصر وعاجز وهو أيضا لا يستطيع أن يتبصر الأمور على حقيقتها، فيرى المشاكل والحوادث من زاوية معينة وهو ذا رأي معين وقلما يتفق برأيه من آخرين؛ مما يشكل رؤية غير موحدة لدى أطياف الناس؛ لأن الإنسان نفسه ليس قادر على الرؤية الواحدة. والإنسان على قدر ما يملك من إمكانات وقدرات تمكنه من مواصلة حياته اليومية، لكنه عاجز عن دفع الضرر عن نفسه، فعلى سبيل المثال، من هو القادر على أن يمنع فيروس الانفلونزا من إصابته، بالرغم من أن هذا المرض البسيط الذي ترافقه حمى تصيب الإنسان لأيامًا معدودة، تشعره كأنه سيموت على الحال، ويرى ضعفه الكامل ونقصه وعجزه في أيام معدودة من مرض ما. وهو أيضا لا يستطيع تقييم الواقع والأحداث الجارية إلا بعد مرورها، لأن عقله لا يستطيع استيعاب ما يجري إلا وفق ما اختزن في مخزونه المعرفي من رؤى ومبادئ وقيم تسيره وتتحكم فيه، وهو كذلك محكوم لا حاكم وعاجز وناقص وضعيف، وفي ذلك حكمة للإنسان ألا يتجبر على الأرض، وأن الله قد استخلفه فيها لإعمارها وإحسانها، وعليه ألا يتعالى، ويتكبر، ويتجبر، ويظلم، ويفسد في الأرض؛ لأنه ضعيف بأمر الله وإن استقوى على خلق الله فالله قادر وهو ضعيف ليس بقادر.

نعم الله على الإنسان

أسبغ الله على عباده نعماً ظاهرةً و باطنةً ، و هي نعمٌ كثيرةٌ لا تعدُ و لا تحصى ، قد يكتشف الإنسان عدداً منها و يراها رأي العين و قد تخفى عنه نعمٌ غيرها كثيرة ، فالله هو خالق النّاس أجمعين ، خلقهم بأحسن صورةٍ و فضّلهم على كثيرٍ ممّن خلق ، بل قد أكرم الإنسان بأن جعل الملائكة تسجد له إكراما له و استخلفه في الأرض بعد ذلك بأن اختاره ليكون خليفته فيها ليعبد الله حقّ عبادته و يحكم بين النّاس بشريعته التي أنزلها على رسله ، فأوّل نعمة كانت هي خلق الإنسان بهذه الصّورة الكاملة و إعطاؤه هذه المكانة بين سائر مخلوقاته ، بل إنّ الشيطان قد حسده على مكانته هذه و تعهد بغواية ذريته و إضلالهم ، و قد بيّن الله سبحانه و تعالى للشيطان أنّ سلطانه سيكون على الذين يتولونه و الذين هم به مؤمنين و أن لا سلطان له على عباد الله المؤمنين المتقين ، و إنّ من نعم الله سبحانه على عباده أن هداهم للإيمان و طريق التّوحيد و البعد عن الضّلال ، فطريق الإسلام و التّوحيد الذي جاء به سيّدنا محمّد صلى الله عليه و سلم بالوحي من ربّ العالمين ، هو طريق السّعادة للبشريّة و الفلاح ، و من سلكه فاز و أفلح و ورث جنّة ربّه التي فيها النّعيم المقيم ، و من تنكّب هذا الطّريق خاب و خسر .

و قد سخّر الله سبحانه و تعالى للبشر الكون بما فيه من مخلوقات على أشكال متنوعة ، يستفيد الإنسان منها على وجوهٍ مختلفةٍ ، فمن الحيوانات ما يستفيد الإنسانُ من لحومها و منها ما يستفيد الإنسان من أصوافها و أوبارها و أشعارها فيصنع منها ثيابه أو أثاثه ، و من الحيوانات ما ينتفع الإنسان منها في الصّيد كالكلاب و الطّيور الجارحة ، و منها ما يستخدمها الإنسان ركوبا له ، ولو تكلمنا عن النّباتات و نعمها العظيمة على الإنسان لما كفتنا في ذلك مجلدات ، فأنواع النّباتات كلها ينتفع منها الإنسان على وجوه متنوعة في مأكله و مشربه و دوائه ، بل إنّ للنّباتات دورٌ حيويٌ في الكون بما تحققه من التّوازن البيولوجي ، و يبقى القول أنّنا إزاء تلك النّعم الوفيرة مأمورون بشكر الله سبحانه عليها ، فبالشكر تدوم النّعم .

تفسير سورة الكوثر

«إنا أعطيناك الكوثر » أخبرنا إسماعيل بن عبد القاهر ، أخبرنا عبد الغافر بن محمد ، أخبرنا محمد بن عيسى الجلودي ، حدثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ، حدثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة ، حدثنا علي بن مسهر عن المختار – يعني ابن فلفل – عن أنس قال : بينا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلنا : ما أضحكك يا رسول الله ؟ قال : أنزلت علي آنفا سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم : « إنا أعطيناك الكوثر فصل لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر » ، ثم قال : « أتدرون ما الكوثر » ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم ، قال : « فإنه نهر وعدنيه ربي – عز وجل – عليه خير كثير هو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم فيختلج العبد منهم فأقول : رب إنه مني ، فيقول : ما تدري ما أحدث بعدك » .

أخبرنا عبد الواحد المليحي ، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي ، أخبرنا محمد بن يوسف حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا عمرو بن محمد ، حدثنا هشيم ، حدثنا أبو بشر وعطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « الكوثر » : الخير الكثير الذي أعطاه الله إياه . قال أبو بشر قلت لسعيد بن جبير : إن أناسا يزعمون أنه نهر في الجنة ؟ فقال سعيد : النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله إياه . [ص: 558]

وقال أهل اللغة : الكوثر : فوعل [من الكثرة ، كنوفل : فوعل] من النفل والعرب تسمي كل شيء [كثير في العدد أو] كثير في القدر والخطر : كوثرا . والمعروف : أنه نهر في الجنة أعطاه الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – كما جاء في الحديث :

أخبرنا أبو عبد الله محمد بن الفضل الخرقي ، أخبرنا أبو الحسن علي بن عبد الله الطيسفوني ، أخبرنا عبد الله بن عمر الجوهري ، حدثنا أحمد بن [علي] الكشميهني ، حدثنا علي بن حجر ، حدثنا إسماعيل بن جعفر ، حدثنا حميد عن أنس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : دخلت الجنة فإذا أنا بنهر يجري بياضه [بياض] اللبن وأحلى من العسل وحافتاه خيام اللؤلؤ فضربت بيدي فإذا المرى مسك أذفر فقلت لجبريل : ما هذا ؟ قال الكوثر الذي أعطاكه الله – عز وجل – .

أخبرنا عبد الرحمن بن محمد الداودي ، أخبرنا أبو الحسن أحمد بن محمد بن موسى الصلت ، حدثنا أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمي ، أخبرنا أبو سعيد الأشج ، حدثنا محمد بن فضيل عن عطاء بن السائب عن محارب بن دثار عن ابن عمر قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « الكوثر نهر في الجنة ، حافتاه الذهب مجراه على الدر والياقوت تربته أطيب من المسك وأشد بياضا من الثلج » . . [ص: 559]

أخبرنا عبد الواحد بن أحمد المليحي ، أخبرنا أحمد بن عبد الله النعيمي ، أخبرنا محمد بن يوسف ، حدثنا محمد بن إسماعيل ، حدثنا سعيد بن أبي مريم ، حدثنا نافع [بن عمر ، عن] ابن أبي مليكة قال : قال عبد الله بن عمرو : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « حوضي مسيرة شهر ، ماؤه أبيض من اللبن وريحه أطيب من المسك وكيزانه كنجوم السماء ، من يشرب منها لم يظمأ أبدا » .

أخبرنا أبو سعيد عبد الله بن أحمد الطاهري ، أخبرنا جدي عبد الصمد بن عبد الرحمن البزاز ، أخبرنا محمد بن زكريا العذافري ، أخبرنا إسحاق بن إبراهيم الدبري ، حدثنا عبد الرزاق ، أنا معمر عن قتادة عن سالم بن أبي الجعد ، عن معدان بن أبي طلحة عن ثوبان قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « [أنا عند عقر حوضي] أذود الناس عنه لأهل اليمن « إني لأضربهم بعصاي حتى يرفضوا عنه » وإنه [ليغت] فيه ميزابان من الجنة ، أحدهما من ورق والآخر من ذهب طوله ما بين بصرى وصنعاء ، أو ما بين أيلة ومكة أو من مقامي هذا إلى عمان » .